

حرية الضمير . . وتغيير الدين

فى الموقف مما يسمى « حرية الضمير » بمعنى حرية الكفر والزندقة والإلحاد .. وتغيير الدين .. تعبر الوثيقة الفاتيكانية عن « العقلية الغربية » وليس عن « العقلية الشرقية » .. ثم تذهب لتفرض هذه العقلية الغربية على الشرقيين - مسيحيين ومسلمين - !... ففى الغرب - وبالذات فى أوربا - ليس الدين مما يغار عليه الإنسان ، ولا هو من ثوابت الهوية التى يتمسك بها ، ويضحى فى سبيلها .

ولقد اكتشف رفاة الطهطاوى [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣م] هذه الحقيقة عندما ذهب إلى باريس - بنت الكاثوليكية .. وعاصمة أكبر بلادها - فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، فكتب يقول :

« إن أكثر أهل هذه المدينة - [باريس] - إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيره له عليه ، بل هو من الفرق المُحَسَّنة ، والمُقبَّحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب

لخروجه عن الأمور الطبيعية . . ولهم فى الفلسفة حشوات
ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية»^(١)

فالمراء - فى تلك الحضارة - لا غير له على دينه ، وهو يتنازل
عنه ، ويهمله ، ويبدله كما يبدل المنزل أو السيارة - وربما أدنى
من ذلك ! - . . ولذلك أسباب تتعلق بالميراث الوثنى الإغريقى . .
وبالطابع الخرافى للاهوت الكنسى . . وبالفلسفة الوضعية . .
وبالعلمانية ، بعد عصر النهضة الأوربية الحديثة ، التى أنزلت
المسيحية عن عرشها فى الفضاء الأوربى .

لكن مكانة الديانة فى الشرق - مسيحية كانت أو إسلاماً - عند
المسيحيين وعند المسلمين - ليست على هذا المنوال . .
فالمسيحيون المصريون الأوائل - والشرقيون عموماً - كانوا
يقبلون على الموت ، طعاماً للأسود وللنيران ، دون أن يتخلوا عن
دينهم أو يبدلوه ! .

وقبل المسيحية ، يحكى القرآن الكريم قصة « أصحاب
الأخدود » ، الذين أقبلوا - فرحين - على الحرق بالنيران فداء
للدين الذى به يؤمنون ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۖ ۝ أَلِنَارٍ ذَاتِ
الْوُقُودِ ۖ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۖ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) رفاعة الطهطاوى [الأعمال الكاملة] جـ ٢ ص ٧٩ ، ٣٢ - دراسة وتحقيق :

دكتور محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

شُهُودٌ ﴿٤٠﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٤١﴾
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٢﴾
(البروج: ٤-٩) .

وعندما ظهر الإسلام ، سجل التاريخ ، أروع صور الصمود
البطولي والأسطوري للمؤمنين المستضعفين - من الرجال
والنساء - الذين اكتتروا بحرارة الرضاء كى يبدلوا دينهم ، فما
زادهم ذلك إلا إيماناً ، وإعلاناً عن التوحيد : « أَحَدٌ أَحَدٌ ! » .

وفى النسق العقدى الإسلامى أصبح الحفاظ على الدين وعلى
الوطن - الذى هو وعاء إقامة الدين - معياراً للموالاتة وللمعاداة . .
وصار الحفاظ على الدين أول ضرورة من ضرورات مقاصد
الشرعية الإسلامية . . وجاء فى الحديث النبوى الشريف : « من
قُتِلَ دون ماله فهو شهيد ، ومن قُتِلَ دون دينه فهو شهيد ، ومن
قُتِلَ دون دمه فهو شهيد ، ومن قُتِلَ دون أهله فهو شهيد »
- رواه الترمذى - . .

وبهذه القيمة ، وهذه المكانة للدين ، اصطبغت الحضارة
الإسلامية ، وكل أبنائها ، المسلمون منهم والمسيحيون . . حتى
أننا نجد - فى واقعنا المعاصر - شعوب الشرق - المسيحيين منهم
والمسلمين - يضعون الدين والعرض والشرف فى المقام الأعلى ،
ويضحون فى سبيلها بالحياة . . ولذلك عدَّ تغيير الدين - لدى

المسلمين والمسيحيين الشرقيين - خيانة وعارا ، يعاقب عليه بالقتل - حتى وإن كان ذلك افتتاحا على السلطان والقانون والقضاء! . . .

وتلك هى الحقيقة الحضارية الإسلامية الشرقية التى غابت عن العقلية الغربية والمتغربة التى صاغت وثيقة الفاتيكان! . . . فقالت - بلهجة النقد والاستنكار - فى البند ٣٧ - :

« فى الشرق عادة ما تعنى الحرية الدينية حرية العبادة ، وبالتالي فهى لا تعنى بعدُ حرية الضمير ، أى حرية أن يؤمن الشخص أو لا يؤمن ، أن يمارس ديانة سرّاً أو علناً بدون أية عقبة ، وبالتالي حرية تغيير الديانة . إن الديانة فى الشرق ، عادة ما تكون اختياراً اجتماعياً ، بل قومياً ، لا اختياراً فردياً ، فتغيير الديانة يعتبر خيانة تجاه المجتمع والثقافة والأمة المبنية أساساً على تقليد دينى » .

ويا ليت هذه الوثيقة الفاتيكانية سلمت بهذا التمايز الحضارى الشرقى إزاء الدين ، وإزاء تغيير الدين ، باعتباره خصيصة حضارية شرقية ، يستوى فى الاستمسك بها المسيحيون والمسلمون على حد سواء .

ولكنها انسأقت وراء مقاصد تنصير المسلمين ، وتغيير دينهم ، ووراء ذلك الذى سمته « حرية الضمير » للمسلم كى يغير دينه . . .

فتحدثت - فى البند ١١٠ - عن «أن الحرية» الدينية وحرية
الضمير مجهولتان بوجه عام فى الإطار الإسلامى» . . وقالت
- فى البند ٣٨ - : «إن الاهتداء إلى الإيمان المسيحى ينظر إليه
كنتيجة لاقتناص مغرض ، وليس لاقتناع دينى حقيقى» .

ثم وقعت هذه الوثيقة الفاتيكانية فى التناقض ، عندما أطلقت
على الانتقال من الكاثوليكية إلى الإنجيلية - والمفترض أنهما دين
واحد - مصطلح «الاقتناص»!! فقالت - فى ذات البند - ٣٨ - : «إن
بعض الجماعات الإنجيلية تمارس الاقتناص المسيحى علناً!

ثم مضت فأمعنت فى تحدى هذه «الخصوصية الدينية
الحضارية الشرقية» إزاء مكانة الدين ، فطالبت - فى ذات البند -
«باحترام حقوق الإنسان ، حرية ضميره كاملة»! . .

لقد تجاهلت هذه الوثيقة - التى صاغتها العقلية الغربية
والمتمغربة - التى لا تغار على الدين - أن هذه الغيرة على الدين ،
واعتباره عنواناً على الذات ، واعتبار تغييره خيانة اجتماعية ، هى
قيمة سائدة حتى داخل الطوائف المسيحية الشرقية ذاتها . .
وليست - فقط - بينها وبين الإسلام . .

- فالأرثوذكس الأقباط يرفضون الزواج فى كنائس الكاثوليك
والإنجيليين . . ولا يعدونه زواجا مسيحياً! . . ويرفضون الصلاة
فى غير الكنائس الأرثوذكسية .

- وكثيرون من أبناء هذه الطوائف يرتكبون جرائم القتل
- خارج القانون - بسبب تغيير الدين - الذى تدافع عنه الوثيقة
الفاتيكانية ، وتدعو إليه ، وتسميه « حرية الضمير » . . بل إن
الكنيسة الأرثوذكسية المصرية تختطف وتسجن - في الأديرة - من
ينتقل منها إلى الإسلام ! .

● بل إن الفاتيكان - الذى صاغ هذه الوثيقة - غاضب كل الغضب
من « حرية الضمير » هذه التى أدت وتؤدي إلى انتقال رعيته
من الكاثوليكية إلى الإنجيلية فى أمريكا اللاتينية وأمريكا
الشمالية! . .

لكنه يريد تسويق هذا الذى سماه « الاقتناص » بين المسلمين ،
تحت عنوان « حرية الضمير » ! . . وهى حرية مرفوضة إسلامياً ،
لأنها تعنى حرية التنصير ، الذى غدا حرباً عالمية عظمى ضد
الإسلام والمسلمين ، وليس مجرد قناعة فردية خاصة يملها العقل
والضمير .